اِبْنُ مُعْطٍ ومنهجه التعليمي من خلال الألفيّة

أ. صليحة خلوفي
جامعة مولود معمري
- تيزي وزو-

مقدّمة: كانت بجاية منذ القرن الخامس الهجري وريثة لثقافة المدن والعواصم التي كانت مزدهرة من قبل كالقيروان وقلعة بني حمّاد وبعض العواصم الأندلسيّة، وكانت مركز إشعاع حضاري وثقافي وديني يربط الغرب الإسلامي بشرقه، ولطالما استقطبت بجاية العلماء والدّارسين من كلّ أصقاع العالم.

ولقد تكوّنت في بجاية وما حولها في منطقة «زواوة» بمفهومها الواسع معاهد ومراكز علميّة يُتَوارث فيها العلم أبا عن جدّ على مرّ القرون والعصور، ولقد اكتسب كثير من علماء المنطقة شهرة طبقت آفاق العالم الإسلامي آنذاك شرقا وغربا.

سنحاول من خلال هذه الدّراسة التّركيز على أحد أعلام منطقة «زواوة» وهو العالم الجليل «ابن معط» ؛ صاحب الألفية الشهيرة في

النّحو، كي نبيّن الدّور الرّائد الذي لعبه هذا العالم الجزائري في خدمة اللّغة العربيّة بشكل عام، والدّرس النّحوي بشكل خاص، ومن أجل تحقيق هذه الغاية وقفنا أمام جملة من التّساؤلات التي يفرضها البحث العلمي وهي:

من يكون هذا العالم ؟ كيف كانت مسيرته العلميّة؟ لماذا انتشرت المنظومات النّحويّة في عصره؟ وما الدّافع إلى تأليفها؟ ما الذي يميّز ألفية ابن معط عن غيرها من المنظومات الشعريّة والمؤلفات المعاصرة له؟ إلى أيّ مدى أثّرت ألفيّة ابن معط في ألفيّة ابن مالك وفي مؤلفات الآخرين؟ لماذا لم تشتهر ألفيّة ابن معط رغم أسبقيّتها لألفيّة ابن مالك؟ ما هي المدارس النّحويّة التي تأثّر بها ابن معط؟ وهل استطاع أن يرسم لنفسه منهجا نحويّا تعليميّا خاصّا يميّزه عن باقي المدارس النّحويّة من بصريّة وكوفيّة وبغداديّة؛ وبالتّالي يستقلّ من حيث المنهج والأسلوب والمصطلحات والآراء النّحويّة؟

والهدف من هذه الدّراسة هو تسليط الضّوء ولو من زاوية ضيّقة على هذا العالم الجزائري الذي لا يزال مجهولا عند الكثير من أبناء وطنه وكان حريّا بهم التّعريف به وبإنجازاته العلميّة القيّمة.فيعنى هذا العمل بإظهار البراعة الفائقة التي يتمتّع بها ابن معط في نظم العلوم شعرا، وإبراز مواهبه الفنيّة الكامنة في أعماقه.

1- **التعريف بابن معط:** هو يحي بن عبد المعطي بن عبد النور، أبو الحسين زين الدين الزواوي المغربي الحنفي ويُكنى بأبي الحسن، واشتهر باسم ابن المعطي، وتكتب بإثبات الياء وبدونها وهو جائز، فقد ورد إثبات

الياء في المنقوص المرفوع والمجرور كثيرا، ويقال أن ابن معطي تلقّب بزين الدين لقوله:

قالوا تلقّب زين الدين فهو له *** نعت جميل به قد زين الأمنـا

فقلت له لا تعذلوه إذ ذا لقب *** وقف على كلّ بخس والدّليل أنا

وينسب ابن معط إلى زواوة، وهي قبيلة كبيرة بظاهر بجاية، ذات بطون وأفخاذ[1] ولذا يقال له الزواوي.

ولد ابن معط سنة 564هـ (أربع وستين وخمسمائة للهجرة) ولم يعين من ترجم له البلدة التي ولد بها، ولكن يمكن القول أنّه قد ولد بظاهر بجاية حيث كانت تسكن قبيلته.

وبجاية[2]: مدينة على ساحل البحر بين أفريقيا والمغرب، تقع شرق العاصمة الجزائرية وتبتعد عنها بحوالي مائة وخمسين كيلمترا.

وتعلّم ابن معط القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم بمسقط رأسه، ثمّ أخذ العلم عن كبار علماء عصره كالجزولي الذي أقام بمدينة بجاية حيث عمل هناك، والتفّ الناس حوله ينهلون من علمه، وكذا ابن عساكر، حتى أصبح إماما بارزا في العلوم العربية، وشاعرا محسنا وناظما مجيدا، سكن دمشق مدّة طويلة، وتصدّر للتّعليم فانتفع به عدد كبير من طلاب العلم والمعرفة، وبلغت شهرته إلى القاهرة فبعث إليه الملك الكامل رغبة في الانتقال إلى عاصمة ملكه، فسافر إليه وتصدّر لتدريس الأدب وفنونه بالجامع العتيق وأجرى له مرتّبا يليق بـه وبقي ينشر العلم إلى حين وفاته في أواخر ذي القعدة من عام 628هـ[3] ودفن بالقرب من تربة الإمام الشّافعي، وقبره معروف هناك اليوم.

2- **عصره:** عاصر ابن معط بداية ظهور الدّولة الموحّدية، وما صاحبها من اضطرابات سياسيّة وحروب عسكرية لتثبيت أركان الدّولة، وتوحيد دولة المغرب، وحيث الدّعوة الجديدة إلى تجديد المفاهيم الإسلاميّة واكتساب المسلمين روح القوة للدّفاع عن أنفسهم وأراضيهم لتكوين دولة مستقلة وكان صاحب هذه الدعوة مؤسّس دولة الموحّدين: المهدي بن تومرت. ولم تؤثّر هذه الاضطرابات على النواحي العلمية والفكريّة، فقد شهدت دولة الموحّدين نهضة علمية كبيرة، فيلاحظ الاهتمام الكبير بالعلم والأدب والفكر والثّقافة، ولذلك ازدهرت العلوم الشّرعية وعلوم العربيّة من نحو ولغة وعروض وتاريخ وسير، كما شهد المشرق العربي انتصارات صلاح الدين الأيوبي وسحقه للصّليبيين، وتطهيرهم للأراضي الإسلامية من دنسهم، وإخراجهم مدحورين مهزومين، يجرون ذيول الخيبة والعار، وكذلك بقضائهم على الدولة الفاطمية، فقد شجعوا بطريقة مباشرة وغير مباشرة النشاط العلمي «وبرزت نتائجه في كتب نفيسة أثرت المكتبة العربية في كل فن»[4] وبرز علماء أجلاء في العالم الإسلامي، كالإمام المحدث الفقيه الأديب أبو محمّد عبد اللّه الأشيري، والعلامة المحدث محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سليمان التّجيبي التّلمساني، في الجزائر والمغرب، أمّا المشرق فقد برز الإمام الحافظ ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق وغيرهم، أمّا في علوم العربية فقد طلع فيها نجم علماء عباقرة منهم: الجزولي والسهيلي والشلوبين وابن خروف وابن عصفور وابن مضاء وغيرهم، وأصبح كلّ عالم من هؤلاء مدرسة قائمة برأسها فانتشرت المدارس النحوية في فاس، سبته،طنجة،وإشبيلية، الأمر

الذي جعل الطلاب ينتقلون بين المدارس يطلبون علوم العربية من بلاغة ونحو وصرف التي عمت وانتشرت، وتشعّبت موضوعاتها وأبوابها، ويستفسرون عن مسائل كثيرة لمعرفة ما يقوله العلماء عنها، وانتشر علم النحو، وأصبح لازما لكل شخص، والنحو موضوعاته كثيرة، وأبوابه متعدّدة، فنشأت فكرة نظم المسائل اللّغوية والنّحوية، فأنشأ العلامة ابن المناصف أرجوزته المسماة بالمذهبية في الحلي والشيات حيث نظّمها بمراكش سنة (620 هـ) ثم قام ابن معط وهو الرّائد الحقيقي في هذا المجال فنظّم ألفيته المعروفة في النحو، كما نظّم في العروض والقراءات،في هذا الجو العلمي نشأ ابن معط، وخطر على فكره أن يرحل إلى الشّرق، فقد أعجب علماء المغرب العربي بالمشرق العربي إعجابا شديدا[5] حتى أنّ علماء المغرب قد قلدوا المشارقة كثيرا.

3- رحلاته: رحلات العلماء في الغالب تكون لسببين: إمّا طلبا للرّزق وإيجاد لقمة العيش، وإما طلبا للعلم «وكأني برحلات ابن معط هنا من النوع الأول. إذ لو كان طلبا للعلم فهو متوفّر في بلده حيث أتقن علوم عصره حتى وصل إلى رتبة عالية، فأصبح عالما مبدعا في جوعلمي كهذا يحب العلم ويعشقه لا يتركه إلى سواه، خاصة وأنّه عندما وصل إلى دمشق جلس للتّعليم حيث التفّ حوله الطّلاب ينهلون من علمه، يدرسهم الأدب والنّحو وعلوم اللّغة»[6] ونفهم من كلام موسى الشّوملي أنّ ابن معط كان يعاني الفقر الذي كان له بمثابة محرّك أو دافع قويّ للارتحال وطلب لقمة العيش كهدف كحاجة أولية ، ثم يليها طلب العلم كمرحلة ثانية باعتباره قدم من بلد العلم والعلماء.

4 ـ وفاته: يكاد المؤرخون لترجمة حياته أن يجزموا بأنّ وفاته كانت سنة (628هـ). ولكن ابن كثير يقول: «إنّ ابن معط قد توفي سنة 629هـ»[7] وذهب ابن العماد الحنبلي إلى أنّ وفاة ابن معط في ذي القعدة سنة 628هـ حيث قال: «ومات في ذي القعدة سنة 628هـ بمصر وقبره قريب من تربة الإمام الشافعي»[8].

5 ـ شيوخه: تروي لنا كتب التّراجم أنّ ابن معط قد تلقى العلم على يد ثلاثة من العلماء، كان لهم الأثر القوي في تكوينه وهم: الجزولي، والتاج الكندي، وابن عساكر.

6 ـ معاصروه: عاصر ابن معط الكثير من العلماء في المشرق والمغرب، لذلك فقد كانت الفترة الزمنية التي عاشها فترة علم وثقافة ونشاط، فانتشرت المدارس وكثر الطلاب وتجمّع العلماء هنا وهناك، ينتقلون من مكان إلى آخر يناقشون ويتعلّمون ويعلّمون.

وقد عاش ابن معط في فترة زمنية اشتهر فيها العديد من العلماء ومنهم:

من **المغرب العربي:** أحمد بن مضاء القرطبي، وابن عصفور الإشبيلي، الشلوبين.

ومن **المشرق العربي:** علي بن عبد الصمد الرماح، وسليمان بن بنين، وعثمان البلطي، عبد اللّه بن بري بن عبد الجبار.

7- مؤلّفاته: ذكر من ترجم لابن معط عددا من مؤلفاته تشهد بأصالته وعمق فكره، ويكفيه فخرا أنّه أوّل من اتّخذ إطارا متكاملا في

علم النحو في إطار منظوم عرف بالألفيّة، وكذلك بما وضع من أشعار في نظم علوم مختلفة، وقد ذكر المؤرّخون المؤلّفات الآتية:

1- الألفيّة: وقد شرحت شروحا عدة.

2- حواش على أصول ابن السراج.

3- ديوان خطب.

4- ديوان شعر[9].

5- شرح أبيات سيبويه وهي نظم.

6- شرح المقدمة الجزّولية وهي لشيخه الجزّولي، وهي مقدمة في النّحو، وأصلها حواش على جمل الزجاجي، علقها أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي المتوفي سنة 607 هـ. ثم أفردها في كتاب فكانت عسيرة المنال لا يفهمها إلا كبار العلماء، وقد قام ابن معطي بشرحها.

وقد نقل عن هذا الشرح السيوطي في كتابه: الأشباه والنظائر، وكذلك الشيخ ياسين العليمي في حاشيته على التصريح.

7- شرح الجمل في النّحو للزجاجي.

8- العقود والقوانين في النّحو.

9- قصيدة في العروض.

10- قصيدة في القراءات السبع.

11- المثلث في اللّغة.

12- نظم كتاب الجمهرة في اللّغة لابن دريد.

13- نظم كتاب الصّحاح في اللّغة للجوهري، ولم يكمله بسبب وفاته.

14- البديع في صناعة الشعر، ولهذا الكتاب نسخ في كل من: مكتبة

بليبزج تحت رقم3/488.ونسخة بمكتبة أحمد الثالث بالمكتبة السليمانية بإسطنبول /تركيا تحت رقم8/2837.

وهناك صورة ثالثة بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية في القاهرة ويحمل الرّقم(18) بلاغة. واسم المخطوط البديع في علم البديع، وتقع في تسع ورقات، وهي عبارة عن قصيدة مختلفة الأوزان، تبحث في علم البديع[10].

15- الفصول الخمسون: كتاب تعليمي قال فيه ابن معط في مقدمته:«أما بعد، فإنّ غرض المبتدئ الراغب في علم الإعراب حصره في خمسين فصلا، يشتمل على خمسة أبواب»[11] وقد ذكر ابن معط في مقدمة الفصول أنّ عمله تلبية لحاجة المبتدئ، وقد شرح كتاب الفصول أكثر من شارح.

8- تلاميذه: لم يسلك ابن معط في تدريسه الأسلوب السائد في عصره، بأن كان له تلاميذ يلازمونه ويرعاهم، وكأني بأسلوبه في التدريس في كل من دمشق وجامع عمرو بن العاص في القاهرة، يشابه إلى حد ما أسلوب المحاضرات في وقتنا الحاضر، حيث كان يأتي لمكانه المعروف بالجامع، ثم يبدأ محاضرته على جمع غفير من الناس، يتفرّقون بعدها على أمل اللّقاء في المحاضرة أو الدرس الثاني وهكذا، ولذا لم يذكر المؤرخون لحياته سوى عدد قليل من التلاميذ الذين تخصصوا في أخذ العلم عنه، وهم:[12]

1- السويدي الحكيم العلامة شيخ الأطباء عز الدين أبو إسحاق إبراهيم ابن محمد بن طرفان الأنصاري الدمشقي المتوفي سنة 690 هـ[13].

2- إبراهيم بن أبي عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن يوسف أبو إسحاق الأنصاري الأسكندري الكاتب المعروف بابن العطار المتوفي سنة 649هـ، وقد ذكر أنّه تأدّب على ابن معطي.[14]

3- أبو بكر عمر بن علي بن سالم رضي الدين القسنطيني النحوي الشافعي المتوفى سنة695هـ، وقد ذكر السيوطي[15] أنّه قد أخذ علوم العربية عن ابن معط وتزوج بابنته.

4- تاج الدين أبو محمد محمود بن عابدين بن حسين التميمي الصرخدي الذي منحه ابن معطي إجازة إقراء.

وعلى العموم يمكن اعتبار الأسلوب الذي سلكه ابن معط في التعليم أسلوبا تربويا حديثا، أو كما سماه الشوملي الأسلوب التربوي المفتوح[16]. شبيها بأسلوب المحاضرات الجامعية في وقتنا الحاضر، وبهذا سجّل سبقا آخر إضافة إلى الألفيّة يتمثّل في منهجه التّعليميّ المتميّز.

9 ـ شهادة معاصري ابن معط:

لقد برز ابن معط في علوم أخرى غير العربية، حيث كان أديبا وشاعرا ملما بعلوم أخرى، ومبرزا فيها، كما أنّه ألّف العديد من المؤلفات - سبق لنا ذكرها- وشهد معاصروه بالإبداع في علوم العربية منهم: السيوطي الذي قال عنه:«كان إماما مبرزا في العربية، شاعرا محسنا، وكان يحفظ شعرا كثيرا، وأشياء كثيرة، ومن جملة محفوظاته: كتاب الصحاح»[17].وتضاف إليها شهادة ابن الوردي الذي يصف الألفية التي نظمها ابن معط بقوله:«وهي شاهدة لناظمها بإصابة الصواب، والتفنن في الأدب حتى كأنّ سيبويه ذا الإعراب قال له: يا يحي، خذ الكتاب»[18].

ونجد ابن الخباز في ختام شرح ألفية ابن معط يقول:«حاز في هذه الأرجوزة قصب السبق، حيث جمع بين اللّفظ القليل. وكيف لا يكون كذلك وقد كان في العربية نسيجَ وحدِهِ.وأخبرني بعض تلامذته أنّ الملك الكامل رحمه اللّه سأله عن قولنا:أزيدا رأيت غلامه، فأملى في الجواب إحدى عشرة ورقة.وحدّثني من أثق به أنّه أخبره بأنّه أشغل الناس في أرجوزته. فقال: سوف أنفذ إليهم ما هو خير منها. فقيل لي أنّه صنع واحدة مبلغها عشرة آلاف بيت»[19]. فابن الخباز يرى أن ابن معط يعتبر رائدا في تعليم النّحو العربي فألفيته أول ألفية مختصّة بعلم النحو، مع أنّها قد سبقت بملحمة الحريري وغيرها.وهذه الشّهادات العلمية النزيهة من معاصريه تبيّن الدّرجة العلميّة العالية التي وصل إليها ابن معط في ذلك الوقت.

10 ـ التأليف في المتون والمنظومات:

10-1- تعريف المتن لغة: ما اكتنف الصّلب من الحيوان فمتن كلّ شيء ما يتقوّم به ذلك الشّيء، فمتن الحديث ألفاظه التي يتقوّم بها المعنى[20].والجمع متون، والمتن المرتفع من الأرض أو ما صلب من الأرض[21].

- **المتن اصطلاحا:** يطلق العلماء مصطلح المتن على مبادئ فن من فنون جمعت في رسائل صغيرة خالية من الاستطراد والتّفصيل والشّواهد إلا لضرورة تستلزم ذلك، ويطلق على المتون المنظومات وهي نوعان:

- متن منظوم.

- متن منثور.

والصنفان كلاهما يتحرّى المؤلّف فيهما الإيجاز ويتجنّي الاستطراد والتّفصيل ويبتعد عن الخوض المذهبي وإثارة المسائل الخلافيّة وقلّما يلجأ فيهما إلى اعتماد الشّواهد[22]. وهناك مصطلحات متعلّقة بمصطلح المتن أو النظم وهي تحمل معان خاصة بها وهي: الأرجوزة، الشرح، الحاشية، التّقرير.

10- 2- التعليم بآلية المنظومات الشعرية: لما كان العلم والتّعلّم من لوازم التّمدّن وهو ما وعاه السلف من توجيه القرآن الكريم ودعوته إليه والحثّ على التّأمّل والتّفكّر والتّبصّر لإدراك وحدانيّة اللّه تعالى والتّمكّن من التّحكّم في آليات البيئة والمحيط لتشكيل العمران الذي يرقى بالمسلم إلى أداء واجب خلافة اللّه تعالى في الأرض فكان التّركيز على التّعليم لترسيخ العقائد فالانتقال إلى أحكام الشّريعة بعد تحرّي حفظ القرآن الكريم والسنة الشّريفة وتحرّي وعيها في إطار فهم السّالف الصّالح، وبالإخلاص في العلم لوجه اللّه عزّ وجلّ، ولمّا كان العرب أكثر براعة في الشّعر وظّفوه لهذا الغرض كآلية مناسبة آنئذ مثلما توظّف اليوم آليات المعلوماتية والالكترونيات والحواسيب بما فيها من سلبيّات وإيجابيّات للبحث ولطلب العلم وللتّعليم أيضا، وهكذا ظهر علماء تبنّوا هذه الصّيغة التّعليميّة لتحقيق الأغراض السّامية السّالفة منهم:

1- الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ) الذي تعزى له أوّل منظومة في النّحو.

2- **أحمد بن منصور اليشكري** (ت370هـ)، له أرجوزة في النحو يصل عددها إلى ثلاثة آلاف إلا تسعين بيتا.

3- **الحريري** (ت516هـ) صنّف أرجوزته النّحويّة:(ملحة الإعراب ونسخة الآداب) في ثلاث مائة وخمسة و سبعين بيتا.

4- **الحسين بن أحمد بن خيران البغدادي**(ت 600هـ)، وبلغ التّأليف في المتون والمنظومات ذروته في عصر الحكم المملوكي الذي بدأ سنة 648هـ إلى 923هـ وشهدت احتلال بغداد (حملة هولاكو وتيمور لنك) ونكسة العرب المسلمين في الأندلس فصارت مصر والشّام ملجأ العلماء وانحصروا فيهما وراحوا يؤلّفون في هذا الضّرب من النّظم التّعليمي ولأنّ عصر المماليك عملوا على إيصال المتون والشّروح بالحواشي والتّقريرات رابطين بين السّابق واللاّحق فأضحت المتون والشّروح بذلك ميزة العصر المماليكي بعد هذا الذي حصل للمسلمين في كلّ من الأندلس وبغداد فقدّمت خدمة جليلة في جمع أكبر عدد ممكن من العلوم وحفظها من الضّياع، ومن أعلام المنظومات في هذه الفترة:

5- **ابن معطي الجزائري** (زين العابدين أبو الحسين يحي بن عبد المعطي الزواوي ت628هـ بمصر).

6- **ابن الحاجب** (أبو عمرو عثمان بن عمرت646هـ)

7- **ابن مالك** (ت 672 هـ)

8- **نجم الدين الخضراوي** ت(663هـ)

9- **السيوطي** (ت911هـ) له متن منظوم في النحو والصرف والخط.

ونظرة لألفية ابن معط تعطينا صورة عن ابن معط الشّاعر فليس من

السّهولة على شخص أن ينظم ألف بيت شعر في علم هو من أصعب العلوم وأدقّها، وينظم أرجوزة أخرى كما ذكر تزيد عن عشرة آلاف بيت، إلا أن تتوفّر لديه القدرة والموهبة الشّعريّة العظيمة، وقد روت الكتب التي أرخت له نماذج من الشّعر الجيّد التي تعطي صورة عن شاعريّته، وممّا يؤسف له أنّ هذه المصادر لم تذكر إلا القليل من هذه الأشعار[23]. ثم تصاعدت المتون وتواترت في عهد الدّولة العثمانية بدءا من سقوط دولة المماليك من (923هـ إلى 1341هـ) لكنّها لم تلق الرواج الذي عرفته المنظومات في عصر المماليك، بيد أنّ النّحو في فترة العثمانيّين تميّز بتأليف الحواشي والتّقريرات والمختصرات. ونجد في التراث النحوي كتبا كثيرة اتّسمت بالتوجّه التّعليمي في النّحو ألّفها أعلامها في إطار مصنّفات وموسوعات ومنظومات شعرية تعليميّة، ركّزوا فيها على التّبسيط وعلى الهدف التّعليمي من هذه المصنّفات والمنظومات والمتون:

- كتاب الموجز في النحو لابن السراج (ت316هـ)
- كتاب الجمل للزجاجي (ت337هـ).
- كتاب اللمع لابن جني (ت392هـ).
- ألفية ابن مالك (ت672هـ). وهي منظومة مختصرة من كتاب له ضخم موسوم بـ «الكافية الشافية»الحاوي لما يقرب من ثلاثة آلاف بيت في النحو والصّرف.
- شروح الألفية والتّعاليق الدّائرة على شروحها.
- متن الآجرومية لابن آجروم ت(732هـ).....وتآليف أخرى.

10- 3- خصائص التّأليف في المنظومات:

تتميّز المتون الشّعرية والنثريّة بالعبارة الموجزة والاختصار الشّديد، ينزع فيها إلى التّلميح والرّمز على التّصريح ، يتقيّد مؤلّفو المنظومات بمتطلّبات الأوزان الشّعريّة التي يعتريه التقديم والتّأخير والحذف.

10- 4- دوافع التّأليف في المتون والمنظومات: يبقى التّعليم مطلب كلّ الأمم ووسيلة من أهمّ وسائل البناء الحضاري وتطوّر الحياة الإنسانيّة وأداة السّعي الحثيث لفهم الوجود وأسراره، عرفت الشّعوب أهمّيته السّالفة واللاحقة، وكان للعرب والمسلمين إدراك واضح ومبكر لآليته كما ذكرنا قبل، لم يشذوا في ذلك عن البشريّة كلّها بخاصة مع صدر الإسلام إذ وجه القرآن الكريم عقولهم وقلوبهم ومداركهم إلى طريق الحقّ وغايات السمو وإلى التّفكير والتّأمّل والإبداع؛ فظهرت المتون عندهم تباعا بعد اتّساع معرفتهم ونضج عقليتهم وتنوّع ثقافتهم ومتطلّبات ظروفهم وبعد إقبالهم على التّعلّم فكانت الحاجة إلى هذا الضّرب من الشّعر المساعد على الحفظ والنّقل فوظّفوه لأنّهم بارعون فيه ومالكو ناصيته المشوّقة؛ فكان أن ظهر في القرن الثاني للهجرة ليسهل حفظ معارف معيّنة.. وهكذا يمكن القول في دوافع هذا الصنف من النّظم الشّعري أو النّثري ما يلي:

1- إنّ القرآن الكريم سبب أساس في التّوجيه إلى العلم، ولما كان العرب بارعين في الشّعر جعلوه وسيلتهم في التّعليم.

2- إنّ وصول العرب إلى مرحلة النّضج والتّفوّق العلمي جعلهم يعتمدون على آلية الشّعر الذي يتقنون نظمه للتّعليم وذلك لحفظ القواعد الأساسية.

3- الرغبة في تسهيل القواعد للمتعلّمين وتيسير حفظها وتقريب حقائقها، فقاموا بشرح الكتب وتبسيطها وتسهيل فهمها للدّارسين.

4- ضبط أصول العلم في عبارات مختصرة إبعادا للمشقّة وتيسيرا للاستيعاب.

5- حاولوا من خلال هذه الآلية استدراك ما ضاع من الكتب والمصنّفات القيّمة بعد إحراق المؤلفات في بغداد (حملة هولاكو وتيمورلنك) وتعويض ما فقد من التّراث بالذي حصل في الأندلس كذلك.

6- الحرص على حفظ العلوم والقيام بوظيفة التّعليم.

7- تطوير اللّغة العربيّة وحمايتها من اللّحن: بدأ اللّحن بالانتشار في المغرب والأندلس، وأصبحت اللّغة العربيّة بذلك مهدّدة بطغيان هذه الظّاهرة التي سبق لها الظهور في المشرق العربي، وبدأت الفصحى تتأثّر بمختلف اللّهجات، وتتدنّى شيئا فشيئا، سواء كان ذلك في المغرب أو الأندلس، فبرزت الحاجة إلى إعادة الأمور إلى نصابها، واسترجاع الفصحى لمكانها الطبيعي في المجتمع العربي الإسلامي، فكان دافعهم أيضا «حرصهم على القرآن وسلامة لغته والتّجويد في تلاوته وضبطه»[24] لأنّه وبعد تفشي اللّحن وتأثّر القرآن الكريم به، كان لا بدّ من إيجاد وسيلة

تحمي كتاب اللّه ولغة القرآن من استفحال هذه الظّاهرة، وذلك بتنقية اللّغة العربيّة والحفاظ عليها.

8- الردّ على المشارقة: كان المغاربة والأندلسيون «يحسون بنوع من التّخلّف عن المشارقة، فحاولوا أن يعوّضوا ذلك بتأكيد تفوّقهم رغم بعدهم، وسبقهم رغم غربتهم، ومن هنا نراهم يتعصّبون للّغة، حيث يفتنون بعلم النّحو ويقتلونه درسا وتأليفا»[25] كان حبّ التّفوّق على المشارقة هاجسهم الذي عملوا بقوّة لتحقيقه خاصّة في مجال اللّغة والنّحو، رغم سيطرة المشارقة على العلوم العربيّة دامت لعدّة قرون، فقد سبقوا إليها، لأنّ اللّغة العربيّة لغتهم والقرآن الكريم نزل بين ظهرانيهم.

أما المغاربة فقد كانوا يعانون بسبب وضعهم من المشارقة والأندلسيّين معا«فإنّ فتح الأندلس كان سببا في تحويل مجرى تيار الفكر إليها، وحرمان المغرب من أن يتبوّأ منزلة الزّعامة والصّدارة[26]».

تلك المنزلة التي اعتبرها المغاربة من حقّهم، باعتبارهم السّبّاقين إلى اعتناق الإسلام واللّغة العربيّة، وباعتبارهم مساهمين في فتح بلاد الأندلس، ونشر التّعاليم الإسلاميّة بها.

استمرت حركة التّأليف، وكانت مزدهرة خلال القرن السابع الهجري، وكان النّحاة ينشطون بشكل كبير نظرا لتوفّر الظّروف الملائمة التي ساعدتهم على الاستقرار، والبحث ومحاولة الوصول إلى قواعد يخالفون بها نحاة المشرق، فكان لهم ذلك من خلال مختلف الآراء التي جاءوا بها، والمؤلّفات العديدة التي ميّزت الكثير منهم، خاصة وأنّ التّأليف في المشرق العربي قد بدأ يضعف بسبب اهتمام العلماء هناك

بتأليف الكتب الضّخمة والموسوعات والتي يجمع مؤلّفوها ما جاء به المتقدمين في كتبهم، فيغيّرون في اسم الكتاب أو في بعض عناصره، ليؤلّفوا بذلك مصنّفات لم يأتوا فيها بالجديد، وإنّما تكرار ما قيل من قبل بشكل موسّع، وشرح أطول، وبذلك وجد نحاة المغرب والأندلس أنفسهم أمام حقل علميّ كبير يستطيعون من خلاله الإبداع والإتيان بالجديد الذي ابتعد المشارقة عنه، وعن كلّ ما يمكن أن يجعلهم يتصدّرون قائمة المؤلّفين الذين أصبح لهم شأن فيما بعد في الدّراسات اللّغويّة والنّحويّة.

11- ابن معط والألفية: يعتبر ابن معط الرائد في استعمال لفظ الألفية في أشعاره، فقد أطلق على ألفيته هذه التسمية حيث قال:

نحوية أشعارهم المروية *** هذا تمام الدّرة الألفية

تبعه بعد ذلك ابن مالك حيث قال:

وتقتضي رضا بغير سخط *** فائقة ألفية ابن معط

وإلى جانب تفرّد ابن معط بالتسمية بالألفية وسبق غيره وتقليدهم له، فقد تفرّد بشيء آخر، حيث اعتاد الناس أن ينظّم الشّاعر قصيدته أو أرجوزته على بحر واحد، إلا أنّ ابن معط قد خرج على هذه القاعدة، ونظم ألفيته على بحرين، هما الرجز والسريع، ومع أنّ عددا من المشتغلين بالنّحو والأدب قد أثنوا على مقدرة ابن معط الفنّية في توفيقه بين البحرين الرجز والسريع، واعتبروه دليلا على مقدرته الفنية العالية، حيث أنّ التقارب كبير جدا بين الرجز والسريع، حتى لا يميّزه إلا من أوتي أذنا موسيقية مرهفة، إلا أنّني أقول إنّ النظم على هذه الطريقة

كانت من العقبات التي أثرت على انتشار واشتهار ألفية ابن معطي. فالبحر السريع من أثقل البحور الشعرية؛ لما يدخله من زحافات وعلل[27].

ثم يبيّن ابن معطي الدواعي لنظم هذه الألفية، فيقول:

وإذا حدا إخوان صدق لي *** أن اقتضوا مني لهم أن أجعلا
أرجوزة وجيزة في النحو *** عدتها ألف خلت من حشـو
لعلمهم بأنّ حفظ النظم *** وفق الذكي والبعيد الفهم
لا سيما مشطور بحر الرجز *** إذا بني على ازدواج موجز
أو ما يضاهيه من السريع *** مزدوج الشطور كالتصريع

ومع هذا، فقد أقبل على دراسة الألفية وشرحها عدد لا بأس به من العلماء، وكان قد شرحها كل من:

1- أحمد بن الحسين بن أحمد بن معالي بن منصور بن علي بن الخباز الإربلي28 الموصلي النحوي الضرير ت637هـ.

2- محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن سجمان جمال الدين أبو بكر الوائلي البكري الأندلسي الشريشي المالكي ت685هـ واسم هذا الشرح: التعليقات الوفية يشرح الدرة الألفية، وهو شرح كبير في مجلدين وموجود الآن بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية.

3- عز الدين أبو الفضل عبد العزيز بن جمعة بن زيد القواس الموصلي[29] ت696هـ.

وبالتالي فهذه الشروح الكثيرة دليل على جودة الألفية واشتهارها في مختلف الأقطار الإسلامية.

وتعدّ الألفيّة من أبرز مؤلفات ابن معط، ضمّنها أبواب النحو والصّرف، وإن كان النّحو قد نال منها حظّا موفورا؛ إذ لم يشمل الصّرف سوى المقالات العشر الأخيرة، ونلاحظ أنّ مقالات الصّرف قد أخذت مكانها في آخر الكتاب كما هو الشّأن في معظم المؤلّفات النحّويّة.

12- أسلوب الألفيّة: تمتاز ألفيّة ابن معط بالسّلاسة والإحكام في صياغة القواعد النّحويّة ولا غرو في ذلك، فابن معطي اشتغل بالأدب درسا وتصنيفا، وجلّ مصنّفاته تدور في فلكه. وقد انعكس ذلك في معالجته لقضايا النّحو نظما[30]. ويقول عنه الشريشي:«وهذه الأرجوزة البديعية الفصيحة شاهدة له بسعة العلم وجودة القريحة، إذ نظّم فيها علم العربيّة نظم الجواهر في السّلك، وخلّصها من الحشو تخليص الذهب عند السّبك»[31].

إضافة إلى انفراد ابن معط بتسمية الألفية فقد امتاز بشيء ثان حيث اعتاد الناس أن ينظّم الشّاعر قصيدته على بحر واحد إلا أنّ ابن معط قد خرج على هذه القاعدة، ونظم ألفيته على بحرين هما: الرجز والسّريع الأمر الذي جعل المشتغلين بالنّحو والأدب يثنون على مقدرته الفنيّة في توفيقه بين البحرين واعتبروها دليلا على مقدرته الفنّية العالية، إذ هناك تقارب كبير بين الرّجز والسّريع لا يميّزه إلا من أوتي أذنا موسيقيّة مرهفة.

ويمتاز أسلوب ابن معط بالسّلاسة في المأخذ والسّهولة في الإدراك والقرب في الاستيعاب ولعلّ ذلك راجع إلى أنّه كما وصفه ياقوت وابن خلكان.أديب يجيد صناعة الأدب وصياغة العبارة واستعمال اللّغة،

فألفيّته على سعتها تكاد تخلو من كلمة تنافرت حروفها أو ثقلت مع كلمة أخرى تجاوزها، أو غير ذلك إلاّ ما ألجأته إليه الضّرورة القصوى.

13- أثر ألفية ابن معط في مصنّفات الآخرين: يعدّ ابن معط من أئمة عصره، ومن المبدعين في هذا الفنّ، وقد ألّف العديد من المصنفات، شرح بعضها، وفقد بعضها الآخر ولم يعرف بعد عنه شيء، وكانت الألفية من أشهر ما ألّف، تليها الفصول الخمسون، وقد شارك ابن معط في القضايا النّحوية التي طرحها العلماء وأئمّة النّحو في عصره وفي عصر من سبقه، ويقول محقّق شرح ألفية ابن معط:«ورجل بلغ هذا المستوى من سداد الفكر، وقوة المنطق، لا بدّ أن يؤثّر في غيره، فأقبل الناس على قراءة الألفية، ودراستها وتدريسها، وكان ممن قام بهذا ابن مالك ولهذا فلا غرابة أن يتردّد اسم ابن معطي في مؤلفات الآخرين، فقد أخذت منه كتب كثيرة، مستدلّة عن مواقفه ورأيه النحوي، وأذكر هنا بعض النّماذج من الكتب التي أخذت أو استشهدت بآراء ابن معط مثل: كتاب اللّمحة البدرية في علم العربية لابن هشام، وكتاب الأشباه والنظائر للسيوطي، وخزانة الأدب للبغدادي»[32]. وسجّل بذلك ابن معط حضورا قويّا بآرائه النّحويّة التي استشهد بها الكثير من النحاة العرب .

14- لماذا اشتهرت ألفية ابن مالك أكثر من ألفيّة ابن معط؟

من أشهر المنظومات التي بلغت ألف بيت أو ما يقاربه فسميت لذلك ألفيّة:

ألفيّة ابن سينا في الطب، وألفية ابن معط في النحو، وألفيّة ابن مالك في النّحو، ألفية العراقي في أصول الحديث، وألفيّة محب الدين الحلبي في الفرائض، وألفيّة البرماوي في أصول الفقه وألفيّة القباقبي في البلاغة، كما كان للسيوطي ألفية في النّحو والتّصريف والخط.

غير أنّ ما يدعو للتّساؤل حقّا لماذا تعتبر ألفيّة ابن مالك في النّحو والصّرف أشهر الألفيّات على اختلاف أنواعها وفنونها؟ وأصبح الذهن ينصرف إليها إذا ذكر اسم الألفيّة دون تحديد أو تقييد، وأصبحت الألفية من المتون التي لا يستغني عنها طالب علم، فمنذ ظهورها تلقّاها أهل العلم وطلابه بالقبول، وكتب اللّه لها الانتشار إلى مختلف البلدان والأمصار، ودار في فلكها العلماء دون كلل أو ملل من مختلف الملل والنّحل، وعلى مرّ الأزمنة التي تعاقبت على أمّة الإسلام منذ القرن السابع وحتى القرن الهجري الماضي..وغدت ألفية ابن مالك التي تضمّنت منهجه في الدّرس والتّأليف الذي يقوم على أساس المزج بين المذاهب النّحويّة، واختيار الرّاجح منها دون ميل أو انحياز مع جنوح واضح إلى التّجديد والاجتهاد، غدت مدرسة مستقلّة بذاتها رسمت مناهج الدّراسة اللّغويّة في أقاليم كاملة وفق قواعدها وضوابطها.

والألفيّة منظومة شعريّة من بحر الرّجز جمع فيها ابن مالك مقاصد العربيّة وقواعدها في النحو والصّرف، اختصرها من منظومته(الكافية الشافية) والتي تقع فيما يقرب من ثلاثة آلاف بيت وسماها الخلاصة، وإنّما اشتهرت بالألفيّة لأنّها ألف بيت ولقول صاحبه:

وأستعين اللّه في ألفية *** مقاصد النحو بها محويّة

ومع أنّ ألفيّة ابن مالك سبقت بألفيّة أخرى في النّحو أيضا، وهي ألفيّة ابن معطي الموسومة ب:**(الدرة الألفيّة في علم العربيّة)** إلا أنّها لم تنل من الانتشار والقبول ما نالته ألفيّة ابن مالك، ومن الفروق بين الألفيتين أنّ ألفية ابن معطي مزيج من الرجز والسّريع بينما ألفيّة ابن مالك من بحر واحد وهو كامل الرّجز أو مشطوره.

وابن معط يبتعد عن الإيجاز الذي هو من طبيعة المتون، فنراه يستقصي أكثر المسائل في حين أنّ ابن مالك يميل إلى الإيجاز والاختصار.وتختلف الألفيّتان في تنظيم الأبواب و تقسيمها، فابن معط كان يجمع الأبواب المتناسبة في باب واحد، لذا جاءت ألفيّته في واحد وثلاثين بابا، أمّا ابن مالك فقد كان أدقّ من ابن معط في ترتيب الأبواب وتقسيمها و تنظيمها، فجعل كلّ باب وحدة مستقلّة، ولذا جاءت ألفيّته في ثمانين بابا، وقد أشار ابن مالك في الخلاصة إلى ألفية ابن معط مقرّرا تفوّق ألفيّته عليها، فقال:

وتقتضي رضًى بغير سخط *** فائقةً ألفيّة ابن معطي

لكنّه عاد في البيت الذي يليه واعترف له بفضل السّبق، فقال:

وهو بسبق حائزٌ تفضيلا *** مستوجب ثنائي الجميلا

واللّه يقضي بهبات وافرة *** لي وله في درجات الآخرة

ولقد لقيت ألفيّة ابن مالك عناية كبيرة من العلماء، حيث قام كثير منهم بشرحها ونثرها وإعراب أبياتها أو وضع حواش وتعليقات عليها.

15- أثر ألفية ابن معط في ألفية ابن مالك: أما ابن مالك فقد سبق له أن درّس ألفية ابن معط لطلابه وقبل البدء بتأليف ألفيته، ونجد ابن مالك يذكره في بيت من ألفيته قائلا:

وتقتضي رضًى بغير سخط *** فائقة ألفية ابن معطي.

الدراسة التي قدّمها محقّق شرح ألفية ابن معط: (علي موسى الشوملي) وفيها قارن الآراء النّحويّة لابن معطي بآراء ابن مالك وتوصّل المحقّق إلى النّتائج الآتية[33]:

يتصوّر أنّ تفوّقا واسعا وكبيرا بين الأولى والثّانية، ولكنّ القارئ والمطّلع على الألفيتين يخرج بانطباع آخر غير الانطباع الأول؛ فهناك فروق بين الألفيتين منها:

1- كتب ابن معط ألفيته على نسق ونمط لم يسبق إليه، فهو رائد في هذا العلم بشكله ونظمه المتكامل في النحو، وجاء ابن مالك مقلدا لابن معطي في عمله، وفرق بين المقلِّد والمقلَّد، وكفاه فخرا أنّه صاحب الفكرة ثم جاء من يقلّده بعد ذلك[34].

2- ألف ابن معط ألفيته وهو في ريعان شبابه، ولم يتجاوز بعد الحادية والثلاثين من عمره، فخبرته قليلة، ومعركته مع التأليف في بداية عمرها، وكان على عكسه ابن مالك حيث مارس التأليف، وبعد أن عركته المجالس الأدبية، ونضج عقليا و علميّا، وبعد أن درّس ألفية ابن معط ووقف على مواطن القوة فيها، وعلى مواطن الضعف كما تصورها، ثم قام بعد ذلك بتلخيص موسوعته المسماة الكافية على شكل ألفية سماها: ألفية ابن مالك، وبمعنى آخر: لقد نظم ابن مالك ألفيته بعد أن رسخت قدمه، وطال باعه في درس النحو وتصنيفه.

3- نظرا لخبرة ابن معط القليلة، كان يدمج المسائل الكثيرة تحت باب واحد، لكن ابن مالك ولطول اشتغاله بالنحو، يمتاز بتشقيق المسائل وفصلها في أبواب منفصلة بمعنى أنّ ابن مالك كان أكثر توفيقا في تبويب وتصنيف الموضوعات من ابن معط.

4- وممّا لا شك فيه أنّ ابن مالك كان مقلّدا لابن معط حتى في كلماته وأبياته، فكثيرا ما كان يأخذ البيت أو الشّطر، وفي أحيان أخرى يأخذ الفكرة ثمّ يعيد صياغتها بأسلوبه الخاص، والأمثلة على ذلك كثيرة.

16- منهج ابن معط في النّحو: أما المنهج النّحوي الذي تميّز به ابن معط، فقد تحدّث محقّق ألفيته (علي موسى الشوملي) على نماذج ممّا «تابع فيه ابن معط البصريّين، وبعض المسائل التي أخذ فيها برأي الكوفيين، وما نحا فيه نحو البغداديين، وما تفرّد به» [35]

وبيّن لنا أنّ ابن معط يستعمل المصطلحات البصريّة بكثرة في ألفيّته، متأثّرا بذلك بهذه المدرسة التأسيسيّة التي أرست قواعد النّحو العربي، وكذا متأثرا بإمام النّحاة سيبويه، وإضافة لما ذكر سابقا من مصطلحات بصريّة نجد ابن معط يفضّل استعمال مصطلحي:(التّمييز والجرّ) والتي يستعمل الكوفيّون بدلها التّفسير والخفض.

«وإذا أمعنا النّظر في الألفيّة نجد مصطلحات أخرى يستعملها البصريّون مثل الممنوع من الصّرف، الظرف، العطف، الجار والمجرور، النّعت، البدل، المتعدّي واللاّزم، ضمير الفصل، البناء، الإعراب، ألقاب الإعراب... »[36]. ورغم كلّ ما ذكر فلم يكن ابن معط متعصّبا للمذهب البصري، فكانت له شخصيّته المستقلّة، يوافق البصريّين في كثير من

القضايا، ولكن كان يبيح لنفسه أن يأخذ برأي غيرهم بما يراه أقرب من الصّواب من وجهة نظره لذا نراه قد أخذ من الكوفيّين وأيّدهم.

أمّا بغداديّة ابن معط فلم تكن ظاهرة أو واسعة، وقد برزت ملامحها في تأييده لمذهب أبي علي الفارسي وابن جني والزجاجي.

ويمكن القول إنّ ابن معط لم يخرج عن مناهج علماء ونحاة عصره في الأخذ بآراء البصريّين والكوفيّين معًا، إضافة إلى الانتقاء من آراء البغداديّين، ونحاة عصره من الأندلسيّين والمغاربة، ولا ننسى أيضا الآراء التي تفرّد بها في مختلف القضايا والمسائل النّحويّة، فقد كان لابن معطي منهجه الذي يميّزه عن نحاة عصره، ولقد كانت له حصيلة علميّة متميّزة جعلته يكوّن لنفسه مسارا خاصّا في بحث بعض المسائل، فاستطاع أن يقدّم مصطلحات خاصّة به، وفي الوقت نفسه تأثّر بمصطلحات لغويّة تفنّن في استخدامها البصريّون والكوفيّون والبغداديّون.

17- التفاوت في المصطلحات والتّعريفات: فإذا انتقلنا إلى المصطلحات والتعريفات وأردنا أن نتبيّن موقعهما في النّحو التعليمي من كتب القدماء، فإنّنا نجد مصنّفاتهم تتفاوت أيضا في ذكر هذه المصطلحات والتعريفات خضوعا للمستوى التعليمي من جانب ولنضج المصطلح واستقراره ووضوحه من جانب آخر، فإذا تناولنا مصطلح (الأمثلة الخمسة) -على سبيل المثال- نجده غير وارد في كتاب سيبويه ولكنه يقول: «واعلم أنّ التثنية إذا ألحقت الأفعال المضارعة علامة للفاعلين لحقتها ألف ونون ...» وكذلك إذا لحقت الأفعال علامة الجمع لحقتها

زائدتان إلا أنّ الأولى واو مضموم ما قبلها ....« وكذلك إذا ألحقت التأنيث في المخاطبة إلا أنّ الأولى ياء وتفتح النون»[37].

ولم يستخدم الزمخشري أيضا هذا الاصطلاح بل عبّر بقوله: «وهو (أي الفعل المضارع) إذا كان فاعله ضمير اثنين أو جماعة أو مخاطب مؤنث لحقه معه في حال الرفع نون مكسورة بعد الألف مفتوحة بعد أختيها كقولك هما يفعلان وأنتما تفعلان وهم يفعلون وأنتم تفعلون وأنت تفعلين»[38]. ثم أحيا ابن هشام وابن عقيل المتعاصران عبارة الزجاجي فاستعمل كل منهما(الأمثلة الخمسة)[39]. ومن هذا العرض السريع لمصطلح الأمثلة الخمسة نستطيع أن نقول إنّ المتقدّمين آثروا التخفيف من ذكر المصطلحات اكتفاء بإيضاح ما تدل عليه وربما كان في ذلك يسر للدّارسين لا عسر، ومن المصطلحات التي تتبعناها فتبينا أنّها لم تشع عند المتقدّمين الإعراب التقديري، العلامات الأصلية، العلامات الفرعية، الفعل المبني للمجهول، نائب الفاعل، لا النافية للجنس، شبه الجملة، المصدر المؤول، والملحق بالمثنى، الأفعال الناسخة، النعت السببي، النعت الحقيقي، وإنّما ظهرت هذه المصطلحات وغيرها كثير في كتب المتأخّرين والشراح وأصبحت تلقى على الدّارسين والمتعلّمين وملأت أفواه المعلّمين دون مراعاة لمستواهم في استيعاب تلك المصطلحات وإدراك المراد منها ممّا يمثّل عائقا بينهم وبين ما يريدون الوصول إليه وخاصة المبتدئون.

بعد القرن الرابع الهجري حظي التراث النحوي بألوان من التّصنيف، هناك من اتّجه إلى تناول أحكام المفردات وقواعد التّركيب وهناك من

صنّف تصنيفا تعليميا، وسار في عرض مسائل النحو والصرف في أبواب تهتمّ بالمجال التّطبيقي، ومن ذلك كان التّصنيف في النّحو يتّسم بطابعين رئيسيين:

1- طابع تعليمي: يستهدف عرض مسائل النحو ليقف عليها الدّارس أملا في استيعابها ومراعاتها عند النطق والكتابة للوصول إلى بيان الضوابط الواجب انتحائها(انتحاء سمت كلام العرب).

2- طابع نظري: يستهدف بيان الفلسفة النّحويّة، أي مايتعلّق بعلل النّحو والأشباه والنّظائر.[40]

وجاءت ألفية ابن معط من الطّابع الأوّل، نظرا لما تحمله من توضيح لأصول النحو العربي دون التّعمّق في الأشباه والنّوادر واللّغات بشكل عميق، أضف إلى هذا أنّ هذا النّمط التعليمي كان سمة العصر نظرا لتعقيد بعض مسائل النحو من قبل بعض النحاة المتأخّرين الذين فسدت ملكة لسانهم، ومن هنا وضع ابن مالك ألفيته لهذا الغرض؛ حيث جمع فيها الأصول والأدوات والعوامل على طريقة المبتدئين ليستغني بها المتعلّم عن التطويل والتّعقيد، والعلل وما أشبه ذلك. وقد شرح هذا الأمر ابن خلدون؛ حيث رأى أنّ النحو لمّا صار صناعة جاء النّحاة المتأخرون بمسائل تختصر النّحو وتسهّله بعدما حدث الخلاف بين أهل هذه الصّناعة، وتباينت الطّرق في التّعليم وكثرت الاختلافات في إعراب كثير من آي القرآن، وجاء المتأخّرون بمذاهبهم في الاختصار، فاختصروا كثيرا من ذلك الطّول مع استيعابهم لجميع ما نقل، كما فعله ابن مالك في كتاب التّسهيل وأمثاله أو اقتصارهم على المبادئ

للمتعلّمين كالذي فعله الزّمخشري في المفصّل، وابن الحاجب في المقدّمة، وربّما نظّموا نظما مثل ابن مالك في الأرجوزتين الكبرى والصّغرى، وابن معط في الأرجوزة الألفية[41] ومن هنا نرى أنّ ابن خلدون في أمثال هذه المختصرات، هي ردّ فعل صريح على التّعقيد الذي مسّ النحو فجاءت أمثال هذه المختصرات تيسيرا له.

الشواهد والأمثلة التعليميّة التي استخدمها ابن معط في ألفيته:

نجد الكثير من كتب النّحو العربي تتضمن عددا من الشواهد القرآنية، وعددا من الشّواهد الشعرية، وأقوال العرب النّثرية بجانب أمثلة صاغها المصنّفون عن عمد وقصد، «ومن المعلوم أنّ الشّواهد إن كانت من القرآن الكريم فلا قيد فيها، وإن كانت من الشّعر ونثر العرب فلها معاييرها الخاصّة من جهة الزّمان والمكان والقبيلة»[42].أمّا الأمثلة فهي جمل يصوغها المصنّف ويصنعها بما يتّفق مع التّراكيب العربيّة.والفرق بين الشّواهد والأمثلة يتلخّص في أنّ الشّواهد إنّما سيقت في الأصل لإثبات صحّة القاعدة التي استنبطها النحّاة المتقدمين بعد استقرائهم لكلام العرب، ويكثر سوقها ومناقشتها عندما يختلف النّحويون في إجازة تركيب أو رفضه، أو إجازة صيغة أو رفضها، فيحتاج المجيز أن يسوق نصّا يشهد له بصحّة دعواه، كما يكثر سوق الشواهد أيضا لبيان ما ندّ عن القاعدة المستنبطة وشذّ عنها. وعلى سبيل المثال فإنّنا نلاحظ أنّ نصب المفعول به لا يساق له شاهد، وكذلك رفع المفعول به عند بناء الفعل للمجهول على أنّه نائب فاعل، ولكن رفع المفعول به ونصب الفاعل

يسوق له النحويون شاهدا، وإذا عدنا إلى كتاب سيبويه فإنّنا نجده يجمع بين دفتيه شواهد من القرآن الكريم ومن الشعر ونثر العرب وبعض أحاديث الرسول (ص) دون تصريح بأنّها أحاديث. وبالتالي كان عمل سيبويه يجمع بين الاستدلال على صحة القاعدة، وجواز التركيب من جانب، وتوضيح القاعدة والتطبيق عليها من جانب آخر، وغدا سوق الشواهد أمرا تقليديا يمارسه المصنفون دون أن يقصدوا الاستدلال على صحة التركيب إلا إذا كان في معرض ذكر خلاف بين النحويين كإعمال الوصف عمل الفعل دون اعتماد على نفي أو استفهام عند الكوفيين في باب المبتدأ المستغني بمر فوعه عن الخبر فيوردون قول الشاعر[43]:

خبير بنو لهب فلا تك ملغيا *** مقالة لهبي إذا الطير مرت

وبعض المصنّفين يكثر من الاستشهاد بالقرآن الكريم إمّا توقّعا لأنّه محفوظ في صدور المتعلّمين فيقع في نفوسهم موقعا حسنا لأنّه اعتمد على ما وعت صدورهم ولصق بنفوسهم وحبب إلى قلوبهم، أو لأنّ ذلك يساعدهم على فهم القرآن الكريم فيكون ذلك بمنزلة التطبيق وتكوين القدرة على التّحليل النّحوي، وإما أن يكون حرص من المصنف على أن يقدّم الأساليب الفصيحة العالية.

لقد اتّجه ابن معط اتّجاها تربويا وتعليميّا يسجل له لأنّه كان حريصا على أن تكون الأمثلة التي يصوغها مما يثبت القيم الدّينية في نفوس المتعلّمين، وطلب العلم.

ولا نعني بذلك أنه كان على النحويين أن يصنعوا هذا الصنيع وإنّما نعني أنّ بعض النّحويين القدماء عرفوا توظيف الأمثلة تربويا فعنوا طريقا

يمكن غرس الكثير من القيم والمبادئ السليمة التي يريد المجتمع أن ينشئ جيله الجديد عليها.

وقد أشاد ابن خلدون بكتب النحو التي تتضمّن الشواهد من القرآن الكريم والشعر العربي وكلام العرب لأنّ هذه الشّواهد تعين الدّارسين على تكوين ملكة اللّسان العربي بقوله عن سيبويه: « فإنّه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة»[44].

يهدف ابن معط من خلال هذه الشواهد الشّعرية والآيات القرآنية لا إلى التزيّد ولكن لتثبيت القاعدة في ذهن القارئ، ورغبة في توضيح الأمور وربطها بما يحفظون من قرآن كريم وشواهد شعريّة مكرّرة.

ومنهج ابن معط في هذا يشابه إلى حدّ كبير الأساليب التّربويّة الحديثة في طرق التّدريس، حيث يبدأ الشّارح بذكر القاعدة أو الموجز للموضوع ثمّ يبدأ بالتّفصيل، فمثلا في باب تعريف الفعل يعرفه ثم يأتي بعد ثلاثة أبيات ليذكر خصائص وميزات الأفعال.

فيقول في التّعريف:

والفعل ما دلّ على زمان * ومصدرٍ دلالةَ اقتران**

ثمّ يأتي بعدها للتّفصيل في خصائص وميزات الأفعال:

والفعل بالسّين وسوف عرّفا * والأمر والنّهي وقد إن صرّفا**

بينما ابن مالك فيضع مواصفات وخصائص الأفعال مباشرة حيث يقول:

بتاء فَعَلْتَ وَأَتَتْ و يَا افعَلي * ونون أقبلنّ فعْلٌ ينْجَلِي.**

الخاتمة: بعد تقديمنا لهذه الدّراسة وتتبّعنا للمصطلحات التي اعتمد عليها ابن معطٍ في ألفيّته توصّلنا إلى النّتائج الآتية:

- ألفيّة ابن معط كاملة لم تغفل عن أيّ باب أو موضوع نحوي يحتاج إليه الناشئ والمتعلّم لقواعد النّحو العربي بكلّ أبوابه التي بلغت 33 بابا نحويّا، وإضافة إلى 44 موضوعا نحويّا.

- تعدّ الألفية تجسيد أصيل لأصول النّحو العربي أخذا من ينابيعه الأساسية.

- اعتمد ابن معط على النّحاة الذين أسّسوا أركان هذا النحو واعتمد آراء مدرسة البصرة كثيرا، وذكر مختلف الآراء، وهذا يعني أنّ اللّغة لا تحدّ بكيان واحد بل لها مستويات وتخريجات يجوز الاقتداء ببعضها دون البعض.

- الألفية قيّمة وهي ضرب من الشّعر التّعليمي أراد ابن معط من خلالها تقريب النّحو، وتيسيره وتسهيله وإيجازه في منظومة نحويّة لاعتقاده أنّ الشّعر أشدّ تأثيرا في النّفس، وأبعد أمدا وأقوى وسيلة لسهولة حفظه وتذكّره.

- تعنى الألفيّة بإظهار البراعة الفائقة التي يتمتّع بها ابن معط في نظم العلوم شعرا، وإبراز مواهبه الفنيّة الكامنة في أعماقه.

- إنّ الألفية ذات قيمة علميّة كبيرة، فقد جمعت قواعد النّحو كاملة بأقصر الطّرق وبأسلوب منغم قريب إلى النّفس وفي دقّة متناهية.

- تعدّ ألفيّة ابن معط عملا علميّا رائعا في مجال النّحو، فقد استطاع مصنّفها أن يجمع أبواب هذا العلم ومفرداتها المتشعّبة بما في ذلك آراء

المدارس النحوية في نظم منضبط يمكن تذكره والرّجوع إليه (استحضاره في أذهاننا متى أردنا) وهذا أمر يحمد له.

- أنّ ابن معط يعدّ الرّائد الحقيقي في نظم النّحو بشكل متكامل.

- أنّ ظروفه المادية ومستواه الاجتماعي حدّت من انتشار ألفيته وذيوعها.

- أنّ ابن مالك قد قلّد في ألفيته ابن معط، وأنّه قد أخذ منه الكثير.

- أنّ ابن معط لم يحالفه التّوفيق عندما نظم الألفيّة على بحري: (الرجز والسريع)، وهو بهذا خالف كل ما اعتاد عليه العرب.

- بدأ ابن معط ألفيته بمقدّمة تنمّ عن تواضع علمي كبير، تسلسل في عرض المواضيع النحوية وفق منهجيّة محكمة.

- المتون دليل على الحالة العلميّة للعصور الإسلاميّة، تجمع المتون حقائق العلم في ورقات يسهل حفظها واستحضارها في الدّروس والمناسبات.

- مدحت المتون عند البعض لأنّها تتميّز بالعمق والتّنوع العلميان وتضمن المعرفة الوفيرة، ذات ترتيب محكم، ذات إضافات علميّة مفيدة تخلو منها المطوّلات من ناحية التّحليل والتّأويل والتّعليل والإحالات، ويقدّم المتن صورة مجملة للعلم المراد وهذا يمكّن من الإحاطة به في وقت قصير.

- اعتمد ابن معط كغيره من النّحاة على الشّواهد النّحويّة من القرآن الكريم ومن كلام العرب(أشعارهم المرويّة)، وساقها في ألفيته لإثبات صحة القواعد النّحوية.

– لم يكن ابن معط متعصّبا للمذهب البصري، فكانت له شخصيّته وآراؤه المستقلّة، يوافق البصريّين في كثير من القضايا، ولكن كان يبيح لنفسه أن يأخذ برأي غيرهم بما يراه أقرب من الصّواب من وجهة نظره لذا نراه قد أخذ من الكوفيّين ومن البغداديّين.

في الختام نقول إنّ ابن معط قد اتّجه اتّجاها تربويّا وتعليميّا يسجّل له لأنّه كان حريصا على أن تكون الأمثلة التي يصوغها ممّا يبثّ القيم الدّينيّة والأخلاقية في نفوس المتعلّمين وتحثّهم على طلب العلم والتّواضع. فسلك طريقا يمكن غرس الكثير من القيم والمبادئ السّليمة التي يريد المجتمع أن ينشئ جيله عليها. ويبدو جليا تأثره بما حفظه من القرآن الكريم ومن الشّعر وبما وعاه من كتب السّابقين، وجاءت ألفيته من الطّابع التّعليمي نظرا لما تحمله من توضيح لأصول النّحو العربي، أضف إلى أنّ هذا النّمط كان سمة العصر نظرا لتعقيد بعض المسائل النّحوية من قبل بعض النّحاة المتأخّرين الذين فسدت ملكة لسانهم، ومن هنا وضع ابن معط ألفيّته لهذا الغرض؛ حيث جمع فيها الأصول والأدوات والعوامل على طريقة المبتدئين ليستغني بها المتعلّم عن التّطويل والتّعقيد والعلل وغيرها.

الروافد العلمية للبحث:

المعـــاجم:

- ابن منظور/ لسان العرب، ط.1.ـ بيروت: دار صادر، 1990.
- الحموي/ معجم البلدان، ط.1.ـ بيروت: 1993, دار صادر.
- جلول حلمو/ معجم مشاهير المغاربة؛ إعداد، فرقة البحث العلمي بجامعة الجزائر، تنسيق؛أبو عمران الشّيخ؛ تقرير؛ناصر الدّين سعيدوني ـ الجزائر: المؤسّسة الجزائريّة للطّباعة، 1990.
- معجم الأدباء.ـ د.م: دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، د.ت.

الكتـــب:

- ابن العماد الحنبلي/ شذرات الذهب في أخبار من ذهب.ـ ط.2. ، بيروت: 1979, دار المسرية.
- ابن خلدون/ المقدّمة.- ط.1.ـ.بيروت: دار الكتب العلميّة،1993.
- ابن خلكان/ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان؛ تح .إحسان عبّاس.، بيروت: دارا لثقافة، مطبعة الغريب، د.ت.
- ابن كثير، البداية والنّهاية/ تح . مكتب تحقيق التّراث.ـ ط.1.، بيروت: 1996, مؤسّسة التاريخ العربي ودار إحياء التّراث العربي.
- ابن هشام الأنصاري/ شرح شذور الذّهب في معرفة كلام العرب.، بيروت: المكتبة العصريّة، 1991.
- البغدادي/ خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب؛ تح . عبد السلام هارون.- ط.3.-د.م: مكتبة الخانجي للطّبع والنّشر والتّوزيع،1989.

- الزّمخشري / المفصّل في علم العربيّة.- بيروت ، دار الجيل، د.ت.

- السيوطي / بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة؛ تح .محمد أبو الفضل إبراهيم.- صيدا: المكتبة العصريّة، د.ت.

- القنوجي صديق حسن / أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم؛ تح .عبد القادر زكار.- بيروت: دار الكتب العلميّة، 1978.

- تاريخ ابن الوردي.- ط1.-بيروت: دار الكتب العلميّة، 1996.

- سيبويه/ الكتاب؛ تح . عبد السلام محمد هارون.-ط.2.-القاهرة الهيئة المصريّة العامة للكتاب،1979.

- شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك؛ تعليق وشرح محمّد عبد المنعم خفاجي.- بيروت: دار ابن زيدون للطّباعة والنّشر والتّوزيع د.ت.

- صالح بلعيد /ألفيّة ابن مالك في الميزان.- الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1995.

- عبد العزيز بن جمعة الموصلي/ شرح ألفية ابن معطي؛ تح .علي موسى الشوملي.- ط.1طبع بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية.- الجزائر:دار البصائر للنشر والتوزيع، 2007.

- محمّد بن تاويت، محمّد الصّادق عفيفي/ الأدب المغربي.-ط.2.- بيروت: دار الكتاب اللّبناني، 1969.

- مهدي المخزومي/ الدّرس النّحوي في بغداد.- بغداد: مطبعة العون، 1997.

الدوريات:

- عبد الرحمن خربوش «المصطلح اللّغوي في ألفيّة ابن معطي» مجلّة اللّغة العربيّة ، الجزائر : منشورات المجلس الأعلى للّغة العربيّة، ع. 2 / 1999.

الهوامش:

1 – معجم الأدباء، دط. دت، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ج20, ص35, 36.

2 – الحموي، معجم البلدان، ط1.بيروت:1993, مجلد1, ص495.

3 – جلول حلمو، معجم مشاهير المغاربة، إعداد: فرقة البحث العلمي بجامعة الجزائر، تنسيق: أبو عمران الشيخ، تقرير: ناصر الدين سعيدوني، الجزائر:1995, المؤسسة الجزائرية للطباعة، ص502.

4 – ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط2.بيروت:1979, دارالمسرية، ج3, ص199.

5 –عبد العزيز بن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، تح:علي موسى الشّوملي، ط1.طبع بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربيّة، الجزائر:2007, دار البصائر للنشر والتوزيع، ج1, ص13.

6 – عبد العزيز بن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، ج1, ص14.

7– ابن كثير، البداية والنهاية، ط1. تح: مكتب تحقيق التّراث، بيروت:1996, دار إحياء التّراث العربي، مؤسّسة التّاريخ العربي، ج3, ص134 .

8 – ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5, ص129.

9 – عبد العزيز بن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، ج1, ص25.

10 – عبد العزيز بن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، ص26.

11 – المرجع نفسه، ص27.

12 – عبد العزيز بن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، ص31.

13 – ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5, ص411.

14 – ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5, ص32.

15 – السيوطي عبد الرحمن جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة: محمد أبو الفضل إبراهيم، صيدا:دت، المكتبة العصريّة، ج1, ص470.

16 – عبد العزيز بن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، ص32.

17– السيوطي، بغية الوعاة، ج2, ص344.

18 – تاريخ ابن الوردي، ط1.بيروت:1996, دار الكتب العلميّة، ج2, ص157.

19 – ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تح :إحسان عبّاس، بيروت:دت، دار الثّقافة، مطبعة الغريب، ج5, ص243.

20 – القنوجي صديق حسن، أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تح : عبد القادر زكار، بيروت:1978م، دار الكتب العلميّة، ج2, ص479.

21 – ابن منظور، لسان العرب، ط1. بيروت:1990, مادة (م ت ن).

22 – القنوجي صديق حسن، أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، ج2, ص479.

23 – عبد العزيز بن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، ج1, ص87.

24 – مهدي المخزومي، الدرس النّحوي في بغداد، دط.بغداد:1997, مطبعة العون، ص170.

25 – محمّد بن تاويت، محمّد الصادق عفيفي، الأدب المغربي، ط2, بيروت:1969, دار الكتاب اللّبناني، ص60.

26 – محمّد بن تاويت، محمّد الصادق عفيفي، الأدب المغربي، ص60.

27 – عبد العزيز بن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، ج1, ص61.

28 – السيوطي، بغية الوعاة، ج1, ص304.

29 – المرجع نفسه، ج2, ص99.

30 – عبد الرحمن خربوش «المصطلح اللغوي في ألفية ابن معطي » مجلة اللغة العربيّة، الجزائر:1999, منشورات المجلس الأعلى للّغة العربيّة، مطبعة هومة، ، العدد الثاني، ص203.

31 – المرجع نفسه، ص204 (نقلا عن الشريشي في «التعليقات الوفيّة بشرح الدرة الألفيّة»، مخطوط بمكتبة ليبزج بألمانيا تحت رقم210).

32 – عبد العزيز ابن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، ج1, ص65.

33 – عبد العزيز ابن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، ج1, ص68.

34 – المرجع نفسه، ص69.

35 – عبد العزيز ابن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، ج1, ص69, 70.

36 – عبد الرحمن خربوش «المصطلح اللّغوي في ألفية ابن معطي» مجلة اللّغة العربيّة، العدد الثاني، ص205.

37 – سيبويه، الكتاب، تح : عبد السلام هارون، ط2. القاهرة:1977, الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ج1, ص19–20,

38 – الزمخشري، المفصل في علم العربيّة، بيروت:دت، دار الجيل، ص244.

39 – ابن هشام الأنصاري، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، بيروت:1991, المكتبة العصريّة، ص85.

40 – صالح بلعيد، ألفية ابن مالك في الميزان، الجزائر:1995, ديوان المطبوعات الجامعيّة، ص10.

41 – ابن خلدون، المقدّمة، ط2.دار الكتاب اللّبناني، بيروت:1979, المجلّد 1, ص1085.

42 – البغدادي، خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، ط3. تح: عبد السلام هارون، د.ب:1989, مكتبة الخانجي، ج1, ص81.

43– شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج1, ص195.

44 – ابن خلدون، المقدّمة، ط2.دار الكتاب اللّبناني، بيروت:1979, المجلّد 1, ص494.